الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة



الملف

أشرف صالح

عضو إتحاد كُتاب الإنترنت العرب

عضو الإتحاد العالمي للمدونين

عضو جمعية الإنترنت العالمية

عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

جمهورية مصر العربية

mr.ashraf.salih@gmail.com

The Holy Roman Empire

During The Era of Hohenstaufen

هوهنشتاوفن Hohenstaufen أو "هوهينستاوفن" Hehencsteufan أسرة من الأمراء في ألمانيا خلال العصور الوسطى ،اعتلت العرش الإمبراطوري بين عامي ١١٣٨ و١٢٥٤م. وقد استمدت الأسرة اسمها من قلعة عتيقة شُيّدت في ستاوفن بجنوبي ألمانيا في القرن الحادي عشر الميلادي.ففي عام ١١٣٨م اعتلى أحد أفراد أسرة هوهينستاوفن عرش ألمانيا ،وهو كونراد الثالث ، كما كان من حكام آل هوهنشتاوفن أيضاً فريدريك الأول باربروسا[١] ، وهنري السادس[٢] ، و فريديك الثاني[٣].

الجدير بالذكر ؛ أن الحقبة الهوهنشتاوفنية ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من تفت الإقطاع في ألمانيا ، وانهيار السيادة الألمانية في إيطاليا. ولو حاولنا أن نستقرىء تاريخ الإمبراطورية الرومانية الآتي من خلال الأحداث ،لأدركنا أن الحقبة التاريخية كانت صراعاً بين أباطرة الهوهنشتاوفن والبابوية ، أما إذا تخطينا هذه الأحداث إلى خلفياتها البعيدة لبدا لنا الواقع صراعاً بين مفهومين للسيادة الواحدة ، أحدهما سياسي والآخر روحي ، وكان هذا نتيجة حتمية لمفهوم أكثر عمقاً واتساعاً مما كان يقتتل من اجله هنري الرابع وجريجوري السابع ،ذلك أن الطرفين أضحى كل منهما يحمل الإدعاء الكامل بالعالمية.

وإذا كانت المشكلات مع الباباوات بدأت في منتصف القرن الحادي عشر الميلاديّ ، عندما حاول كل من هنري الرابع الإمبراطور الروماني ، والبابا جريجوري السابع ،بسط سلطته على الآخر ، فإن الصراع من أجل السلطة ظل قائمًا بين الأباطرة والباباوات حتى عام ١٢٥٠م ، كما قوى نفوذ النبلاء الألمان خلال هذا الصراع.

ففي عام ١١٢٥م عندما توفي هنري الخامس ، عزم حزب الإصلاح الكنسي في ألمانيا على أن يبعد عن العرش الألماني الوريث الشرعي فردريك الهوهنشتاوفن دوق سوابيا ، وابن أخ هنري الخامس ، وذلك خشية ان يسير على نفس السياسة العدائية تجاه الكنيسة والبابوية. وقد لقيت هذه الرغبة تشجيعاً من جانب نبلاء ألمانيا الذين كانوا يريدون القضاء على مبدأ وراثة العرش الألماني. وهكذا ؛ تآلفت الرغبتان لتزكية الحقوق القديمة للأمراء في اختيار الملك ، ولتأكيد نفوذ رجال الاكليروس ،وتم اختيار لوثيود دوق سكسونيا ملكاً في ألمانيا ، والقضاء على محاولات فردريك لترشيح نفسه للعرش الألماني.

وكان لوثيود ابناً باراً بالكنيسة ، وحتى قبل أن يصبح ملكاً لم يكن ليعصى للأساقفة أو رؤسائهم أمراً ، فلما اعتلى العرش الألماني سلك نفس السبيل راضياً. وكان لوثيود أول ملك ألماني يطلب من البابوية التصديق على اختياره. غير أن التحالف الذي نشأ بين الاكليروس والنبلاء الألمان عند وفاة لوثيود ، أعاد مرة أخرى تأكيد ادعاءاتهم حول حقوقهم في اختيار الملك الألماني ، ومن ثم وقع اختيارهم على كونراد الثالث Conrad III دوق سوابيا ، وهو أول ملوك أسرة الهوهنشتاوفن على عرش ألمانيا.

لقد تسلم كونراد العرش الألماني وهو مثقل بالاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية ، والحقيقة أن كونراد الثالث كان الملك الأول بين ملوك ألمانيا منذ هنري الصياد الذي لم يحمل لقب الإمبراطور الروماني ، فلم يذهب كونراد مطلقاً إلى إيطاليا ، كما كانت الأخيرة آنذاك أخذت تشق طريقها نحو نسيان السيادة الألمانية.

وفي عام ١١٥٢م أدرك كونراد الثالث قبل وفاته ومعه النبلاء الضرورة الحيوية لاختيار ملك يستطيع أن يقضي على هذه الصراعات الداخلية التي تعبث بألمانيا ، وأن يعيد إلى الإمبراطورية ذلك المجد الضائع. فتغاضى كونراد عن ابنه الأكبر واختار فردريك دوق سوابيا ، الذي أصبح الملك الجديد سنة ١١٥٢م.



الإمبراطورية الرومانية المقدسة

---

(١) فريدريك الأول (١١٢١ - ١١٩٠م) يدعى باربروسا ، وتعني ذو اللحية الحمراء: تولى الحكم بعد عمه كونراد الثالث ملكًا لألمانيا عام ١١٥٢م وأصبح إمبراطور روما المقدس عام ١١٥٥م. وقد أُعجب به الشعب الألماني واحترمه بوصفه بطلاً قوميًا شهيرًا. وفي عام ١١٨٠م هزم منافسه على السلطة في ألمانيا هنري الأسد دوق ساكسونيا وبافاريا ، وقد فرض سلطانه في ألمانيا وأراضي الحدود السلافية الشرقية. وكان نجاحه أقل في معركة مريرة ضد ألكسندر الثالث واتحاد لومبارد للمدن الإيطالية الشمالية ، وهزم الاتحاد فريدريك في معركة ليجنانو عام ١١٧٦م ، وكانت هذه المعركة أول انتصار كبير للاتحاد ضد الفروسية الإقطاعية. أجبرت مدن لومبارد فريدريك على أن يمنحها الحكم الذاتي في عام ١١٨٣م. وفي عام ١١٨٩م بدأ فريدريك الحملة الصليبية الثالثة إلى الأرض المقدسة ، وكان هدف الحملة استعادة القدس من صلاح الدين.ولكن فريدريك غرق في العام التالي وهو يعبر نهرًا في أسيا الصغرى.

(٢) هنري السادس (١١٦٥-١١٩٧م): أحد أعضاء أسرة هوهينستاوفن ، خلف والده فريدريك باربروسا سنة ١١٩٠م. وقد شجعه زواجه من كونستانس أميرة صقلية على المطالبة بمُلكها ، كما حصل على فدية كبيرة من ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الأسير لدى دوق النمسا. ودعم هنري مركزه في إيطاليا من خلال البابا العجوز سلستين الثالث ، ووضع الخطط المتعلقة بإبقاء العرش الإمبراطوري في أسرة هوهينستاوفن واتخاذ القدس ذريعة لبدء حرب صليبية جديدة. غير أن هذه المشاريع توقفت بموت هنري وهو في سن الثانية والثلاثين.

(٣) فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م): ويدعى أعجوبة العالم وكان أحد أذكى حكام العصور الوسطى الأوروبية. كان إداريًا ممتازًا وجنديًا قديرًا وعالمًا رائدًا في عصره ، ألمّ بلغات عديدة وشجع تطوير الشعر والنحت ، ومازال كتابه عن الصقور مرجعًا للخبراء. وينتمي فريدريك للعائلة الملكية هوهينستوفن وكان ابن هنري السادس إمبراطور روما المقدس وحفيد فريدريك الأول ، تّوج فريدريك الثاني ملكًا لألمانيا ، حينما كان عمره عامين وملكًا لإيطاليا وعمره أربع سنوات ، وأصبح إمبراطور روما المقدس عام ١٢١٥م ، ونصّب نفسه ملكًا على القدس عام ١٢٢٩م. حكم فريدريك مملكة صقلية حكمًا جيدًا ، وأسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤م وجعل من جامعة ساليرنو أفضل مدرسة طب في أوروبا ، وكان طوال حياته في خلاف مع الباباوات والمدن الناهضة في ألمانيا وإيطاليا.

أعجب فريدريك الثاني بالثقافة العربية الإسلامية وشجع دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركزًا هامًا لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وقد أغضب اهتمامه هذا رجال الدين النصرانيين فاتهموه بالهرطقة أو الخروج عن الدين.

وكان أول شيء أقدم عليه الملك الجديد هو إحلال السلام، والسعى نحو إعادة بناء الملكية الألمانية، كما بذل جهوداً مضنية في سبيل تدعيم وزيادة أراضي التاج. أما فيما يختص بعلاقته بالكنيسة؛ فقد أعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التي أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز التي عُقدت بين البابوية والإمبراطورية سنة ١١٢٢م.

وفي أكتوبر سنة ١١٥٧م كان فردريك في بيزانسون Besancon ليتلقى ولاء برجنديا بعد زواجه من بياتريس Beatrise وريثة كونتية برجنديا، عندما ظهر مندوبو البابا وعلى رأسهم الكاردينال رولان "رولاند Roland"[٤]، والذي يحمل رسالة شديدة اللهجة يحتج فيها البابا هادريان الرابع Hadrian IIII على الهجوم الذي قام فرسان فردريك على إحدى الأسقفيات أثناء عودته من روما إلى ألمانيا.

وراح الكاردينال يتلو رويداً رسالة البابا، بينما تولى رينالد Reinald – رئيس أساقفة كولوني-صديق فردريك المحبوب مهمة الترجمة، وقد سيطر على المكان جو من التوتر العام ووقعت كلمات الكاردينال من أذن الإمبراطور وقع الصاعقة اتقدت له بالغيظ عيناه، على حين كان الكاردينال يقرأ "لعله لم يغب عن ذهنك، أيها الابن الكريم كيف أن الكنيسة الرومانية المقدسة.. قد أنعمت عليكم مؤخراً بالتاج الإمبراطوري.. وسوف تكون أكثر سعادة لو أنا أنعمنا عليك بجميل Benefieia أكبر إذا كان ذلك ممكناً".

ولم يذهب الكاردينال أبعد من ذلك في قراءته، إذا أن رينالد Reinald ترجم كلمة Benefieia بأنها إقطاع "هبة موقوتة Beneficium" وليس جميل Benefieia، وأحدث هذا القول ردفعل عنيف في قاعة الاجتماع، إذا قفز على الفور أحد فرسان الملك المقربين، واستل سيفه وتقدم ليغمده في حلق المندوب البابوي غير أن فرديك كان أسرع منه، فألقى بردائه على مندوب البابا، وأعيد رسل البابا إلى روما وسط حراسة مشددة. وسميت هذه الوقعة بحادثة بيزانسون.

لقد كان أكثر شيء مقتاً إلى نفس الإمبراطور تلك الكلمة التي جعلت من الإمبراطورية إقطاعا بابوياً، فرسالة البابا –مع الخطأ في الترجمة- تعني أن الإمبراطورية إقطاع مؤقت، كما أن التاج الذي على رأس الإمبراطور هبة من البابوية. ولذلك جاء البيان الذي أصدره فردريك رداً على رسالة البابا عنيفاً يمتلئ غيظاً، فأعلن أن قول البابا "**محض زيف وإدعاء**"، وأضاف "لقد تملكنا هذه الإمبراطورية بطريق الانتخاب من جانب الأمراء تنفيذاً لإرادة الله وحده".

لقد كانت رسالة فردريك تعني أن كل من يقول بأن التاج الإمبراطوري إقطاع من البابا، فهو يتحدى بذلك النظم والقوانين الإلهية، وإذا كانت البابوية مقدسة من السماء، فإن الإمبراطورية مقدسة من السماء أيضاً. والحقيقة أن هذا النداء الذي صدر عن فردريك لقي التأييد بالكامل من قبل الكنيسة الألمانية خاصةً وأنه كان قد سعى بجهده ليحررها من سطوة روما ونفوذها. كما عُرفت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة.

الجدير بالذكر؛ أن أعظم الانتصارات التي حققها فردريك بربار وسا في نظر معاصريه هو ما أقدم عليه سنة ١١٨٤م من زواج أبنه الأكبر هنري على الأميرة كونستانس وريثة عرش وليم الثاني ملك جنوب إيطاليا وصقلية وكانت العروس تكبره بعشرين سنة، وكان هذا زواج سياسي، ذلك أن الابن بهذا الميراث إن لم يكن الأب، كان يطمح في أن يضم إلى بقية الإمبراطورية تلك الدولة النورمانية البحرية، ذات الثراء العريض والتنظيم الدقيق. ولما رفض البابا أن يتوج هنري، أعلن فردريك ابنه إمبراطورا شريكاً وخلع عليه لقب القيصر.

ومما لا شك فيه؛ أن هذه الزيجة التي تمت في احتفال مهيب شهدته ميلانو عام ١١٨٦م كانت تشكل خطراً محدقاً للبابوية، فالوحدة بين الإمبراطورية الألمانية ومملكة النورمان الإيطالية كانت تهديداً مباشراً لاستقلال البابوية بصورة لم تحدث من قبل، وذلك في أشد أيامها حرجاً، فقد شاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلي كرسي القديس بطرس، إذا تعاقب على هذا الكرسي عدد من الباباوات الضعاف.

واقع الأمر؛ إن البابوية عاشت حتى لا يتحقق هذا التحالف بين ألمانيا وصقلية، فمشكلة البابوية أن تسيطر عليها قوة خارجية، فالبابوية تريد إمبراطور صنيعتها، وتريد أن تخلق قوة سياسية كبيرة قادرة على حمايتها، لكن في نفس الوقت أضعف من البابوية، وتلك معادلة صعبة.

ومن ناحية أخرى؛ يدرك الإمبراطور الروماني أنه لا يمكن أن يصبح إمبراطور بدون نفوذ له في روما، أو تكون تحت سيطرته وسلطته، ولكي يكون الإمبراطور الألماني عنيفاً في سيطرته على البابوية عليه أن يضع قدميه واحدة في ألمانيا والأخرى في صقلية.

وفي عام ١١٨٨م أقدم الإمبراطور العجوز على خطوة أخيرة ليضع بها نفسه على رأس الشئون الأوربية، فقد كانت قيادة الحركة الصليبية دائماً تتركز في يد البابوية، إلا أنه في ذلك العام حمل الصليب ليقود الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة[٥]. وقد اختار فردريك الطريق البري

---

(٤) البابا اسكندر الثالث Alexander III فيما بعد.

(٥) كانت معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م/٥٨٣هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وذلك في صورة حملة صليبية جديدة وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. وقد قاد هذه الحملة ثلاثة من أبرز ملوك وأباطرة أوربا في ذلك الوقت وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ثم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.
والواقع أن؛ أول من حمل منهم الصليب وتوجه إلي الشرق كان الإمبراطور الألماني علي رأس جيش ضخم،إلا أن هذا الإمبراطور عندما عبر بقواته إلي أسيا الصغرى غرق في أحد الأنهار هناك. فتفرق أغلب أفراد هذه الحملة ولم يصل سوى عدد قليل إلي مدينة عكا الساحلية للمشاركة في حصارها وذلك بجانب قوات الملك الفرنسي الذي سارع بالقدوم للمنطقة بعد الكارثة السابقة وفقد الصليبية الثالثة للدعم الألماني. أما الملك الإنجليزي فقبل أن يصل إلي الشرق عرج في الطريق علي جزيرة قبرص واستولى عليها ،وذلك لموقعها الفريد في مواجهة الساحل الشامي والذي يمكن الصليبيين من التزود بالمؤن قبل قدومهم لبلاد الشام.
وهكذا؛ تقابلت القوات الإنجليزية والفرنسية عند أسوار مدينة عكا وذلك بقصد إسقاطها في القبضة الصليبية لأنها جوهرة الساحل الشامي والتي يمكن من خلالها استرداد بقية المدن الصليبية لاسيما بيت المقدس وهي الغرض الأساسي من الحملة. ودار الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين بشأن المدينة، وتخلل هذا بعض الاتصالات للتفاوض من أجل عكا إلا أن هذا لم يمنع حامية المدينة من الاستمرار في مقاومة الصليبيين. وقد استمر حصار عكا كما استمرت المعارك المتصلة بين الجانبين لمدة عامين كاملين ١١٨٩-١١٩١م إلا أن المدينة سقطت في النهاية في أيدي الصليبيين. وبهذا انتهت معركة عكا لتبدأ أحداث معركة جديدة لا تقل ضراوة عن المعارك الحربية وهي المفاوضات الأيوبية-الصليبية والتي استمرت عاما كاملا ١١٩١-١١٩٢م وانتهت بعقد هدنة الرملة.

الوعر متجهاً نحو الشرق ، وفي عام ١١٩٠م لقي حتفه غرقاً في أحد أنهار أسيا الصغرى.

وخلف هنري السادس Henry VI أبيه فردريك على العرش ، وخلال العهد القصير لهنري (١١٩٠-١١٩٧م) يمكن القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد وصلت إلى منتهى ارتقائها في العصور الوسطى. فقد كان هنري دبلوماسياً داهية يعرف كيف يحصل على أكبر الامتيازات بأيسر السهل ، وكان الهدف الأساسي الذي يملك عليه كل فكره هو أن يجعل الإمبراطورية أكثر اتساعاً وأشد قوة مما كانت عليه زمن أي من أسلافه ، وما من شك في ؛أن الوسيلة الرئيسية لبلوغ هذا المأرب هو أن يتمسك بإصرار بميراث زوجته كونستانس في جنوب إيطاليا وصقلية.

وفي يوم عيد الميلاد سنة ١١٩٤ -في الكاتدرائية التي يرقد فيها جثمانه إلى الآن-في بالرمو ، توج هنري السادس الملك الألماني والإمبراطور الروماني ، ملكاً على صقلية وأبوليا وكالابريا. وفي نفس العام ولد له من زوجته كونستانس ابنه فردريك ، الذي عُرف فيما بعد بفردريك الثاني ، فأراد هنري أن يحتفظ بالتاج لطفله عن طريق قيام البابا بتتويجه دون مراسم الاختيار الألمانية أو الصقلية. غير أن المعارضة لهذا الأمر ظهرت في ألمانيا يقودها رئيس أساقفة كولوني ، الذي كان من حقه نظرياً ، إن لم يكن أمراً واقعاً ، المشاركة في عملية اختيار الملك الألماني وتتويجه ، وقد صعب ذلك أيضاً رفض البابا القيام بعملية تتويج هذا الرضيع إمبراطور ، ومن ثم عصفت هذه الاعتراضات بخطة هنري السادس.

الجدير بالإشارة ؛ أن فردريك عندما بلغ عامه الثاني تم اختياره على يد الأمراء الألمان ملكاً على الرومان ، وقد رضي هنري السادس بذلك بدلاً من أن يفقد كل شيء ، كما أن فردريك بأي حال هو وريثه الشرعي على مملكة النورمان.

وفي بالرمو سبتمبر سنة ١١٩٧م أتى الموت فجأة لهنري السادس وهو في ريعان شبابه ، إذا لم تكن سنون عمره قد تجاوزت العام الثاني والثلاثين ، وقد علق أحد المؤرخين الألمان على موته قائلاً أنه كان: **"أفجع نازلة حلت بالتاريخ الألماني طيلة العصور الوسطى"**.

أما في إيطاليا ؛ فإنه عقب وفاة هنري السادس ، ارتفعت موجة العداء تجاه الألمان ، وكان هذا نتيجة لطبيعة السياسة التي جرت عليها ألمانيا في إيطاليا. على حين عمت الفوضى صقلية بعد سنة ١١٩٧م وعملت كونستانس جاهدة على الاحتفاظ بالمملكة لصغيرها فردريك الثاني ، ولما توفاها الموت سنة ١١٩٨ تركت وليدها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت الثالث Innocent III ومجلس وصاية من رجال الكنيسة. ولما كانت البابوية في شغل شاغل بنفسها وسموها عن من سواها ، تدس أنفها في الصراع الأهلي الطاحن في ألمانيا حول العرش ، فإنها لم تلتفت إلى ذلك الصبي فردريك ، وأصدرت وثيقة رسمية سنة ١٢٠١م بأحقية الطفل في العرش وأنها لا تمتلك الوقت الكافي لرعايته.

وهكذا ؛ ترك الصبي فردريك وشأنه ، شأن أي غلام صقلي يتخبط في شوارع بالرمو وأسواقها العامة ، فشب في حارات صقلية وشوارعها ، ليعتمد على نفسه وليفتح عينيه على كل ما خلفه المسلمون في الجزيرة من جوانب حضارية راقية ، حتى لقد أصبح فردريك على حد تعبير المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان "يمتلك قدراً عالياً من الفكر والثقافة الواسعة ، يعرف ست لغات هي الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية. جمع أصول المعرفة في الفنون وصاحب مدرسة في فن النحت. شاعراً ودبلوماسياً.. ومهندساً معمارياً".

لهذا كله لم يكن غريباً أن يحظى فردريك الثاني بلقب **"محير العالم"** أو **"أعجوبة الدنيا"** Stupor Mundi الذي أطلقه عليه معاصروه ، تعبيراً عن هذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصه.

زد على ذلك ؛ أن هذه النشأة كان لها أثر عليه في الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة[٦] ، فلم يكن يكافأ له في ذلك الوقت في سعة الأفق إلا الملك الكامل الأيوبي في مصر ، فقد كان معاصراً وصديقاً حميماً له ، حتى شبههما الأستاذ كانتروفتش بأنهما وجهين لعملة واحدة ، معبراً عن ذلك بقوله **"كان الكامل هو الوجه الشرقي للإمبراطور ، بينما كان فردريك هو الوجه الغربي للسلطان"**.

أما بالنسبة للعرش ؛ فقد خلف هنري السادس أخوه فيليب السوابي "دوق سوابيا" ، واختار الأمراء أوتو دوق برنسويك Brunswick ، وكان هنري السادس قبل موته أخذ البيعة لأبنه ، فأصبح على العرش ثلاثة ملوك ، الطفل فردريك في صقلية ، وفيليب السوابي ،وأوتو الرابع دوق برنسويك ، فمن هو الملك!

واشتعلت نار الحرب الأهلية بين فيليب وأوتو المختار من قبل الأمراء عام ١١٩٨م ، وبعد ثلاث سنوات كاملة من الحرب أصدرت البابوية عام ١٢٠١م وثيقة خطيرة من قِبل البابا أنوسنت الثالث ، جاء فيها " أنا رجل صالح لأني خليفة المسيح ولا يمكن أن يكون خليفة المسيح رجلاً آثماً ، وسوف أحكم بالعدل في هذه القضية على مبدأين هما الشرعية والصلاحية". ومعنى هذا مَن له شرعية في الحكم ومَن يصلح للحكم ، وكلاهما متناقضان ولا يتفقان ، فكانت هذه الوثيقة في جوهرها تحريضاً على إثارة الفتنة والحرب الأهلية في ألمانيا ، وهذا ما تريده البابوية وتسعى إليه لتظل سيادتها على الإمبراطورية.


Pope Innocent III

(٦) الحملة السادسة (٦٢٦-٦٢٧هـ ، ١٢٢٨ - ١٢٢٩م) ، قادها الإمبراطور فريدريك الثاني الذي أغضب البابا بتوقيعه اتفاقاً مع سلطان المسلمين الملك الكامل قضى بسيطرة النصارى على بيت لحم والقدس ، وظلت بقبضتهم حتى استعادها المسلمون عام ٦٤٢هـ ، ١٢٤٤م.

وقد أوضح البابا في وثيقته الحكم على النحو التالي:

الطفل فردريك الثاني ؛ من حيث الشرعية هو أحق الثلاثة بالعرش ، لأنه ابن الإمبراطور وجده الإمبراطور ، ولأن أباه أخذ له البيعة من الأمراء دون إكراه ، وهم غالبية الأمراء وأكبرهم ، ولكنه لا يصلح لأنه مازال طفلاً والبابوية غير متفرغة لرعاية هؤلاء الأطفال.

فيليب السوابي ؛ يأتي في المرتبة الثانية من حيث الشرعية بعد ابن أخيه ، لأنه أقرب الناس للملك الذي مات ويصبح بحق الوراثة الملك الشرعي ، كما أنه من الأسرة الحاكمة الجالسة على العرش "الهوهنشتاوفن" ، ولكنه لا يصلح ، لأنه قديماً أغضب البابا فحرمه ثم عفى عنه ، وبما أنه سبق حرمانه قبل ذلك فهو لا يصلح.

أوتو الرابع ؛ ليس له الحق مطلقاً في العرش لأنه ليس من الأسرة الحاكمة ، ولأن الأمراء الذين اختاروا هم الأقلية عدداً وشأناً "من الدوقيات الصغيرة" ، ولكنه أصلح الثلاثة.

كان هذا هو الفكر السياسي البابوي في العصور الوسطى ، فالبابوية تريد بجانبها إمبراطورية قوية قادرة على حمايتها ، ولكنها أضعف منها ، والإمبراطور في نفس الوقت يريد روما داخلة في سلطانه ، ويريد السيطرة على البابوية ، لذا لا يتفق الاثنان.

وهكذا ؛ تولى أوتو العرش ، ولكن لقد اختاره البابا ، فما الذي سوف يقدمه هو للبابا ، لقد طلب منه الأخير ثلاثة مطالب:

- التخلي عن صقلية وفسخ عقد الشركة بين ألمانيا وصقلية ، لكي لا تصبح للإمبراطورية قدم في ألمانيا والأخرى في صقلية وروما في المنتصف.
- حمل الصليب والتوجه إلى الشرق في حملة صليبية جديدة ، بعد فشل الحملة الثالثة ، وقيام الحملة الرابعة بإسقاط القسطنطينية.
- يُمنح رجال الدين والاكليروس الكنسي امتيازات هائلة تؤهلهم للخروج عن سلطان الملك "استقلال الكنيسة عن الدولة".

وفي الحقيقة ؛ وافق أوتو على مطالب البابا ، واشتعلت نار الحرب بينه وبين فيليب السوابي من عام ١٢٠١ حتى ١٢٠٥م ، ولم يقم أوتو بشيء مما وعد به البابا ، فتخلى الأخير عنه ووقف بجانب فيليب السوابي ، ودخل في مفاوضات معه حول الاعتراف به وتتويجه إمبراطوراً ، كما تغاضى عن قرار الحرمان ، ولا عجب في الأمر ، فالبابا هو الذي يمنح وهو الذي يمنح ، وهو صاحب نظرية الشمس والقمر ، ونائب المسيح على الأرض ، فهو في مرتبة بطرس الآن وليس خلفاً له.

أما فيليب السوابي ؛ فقد وعده بتنفيذ كل شيء ، إلا أن الأحداث لم تمهله فقد أغتيل عام ١٢٠٨م نتيجة عداء شخصي ، وبذلك أصبح أوتو ملكاً منفرداً ، استبد بالسلطة وراح يعاند البابوية. فتذكرت البابوية في عام ١٢١٢م الطفل فردريك الثاني في صقلية ، فجاءت به وأعلنته ملكاً على ألمانيا ، مما يعني تجدد الحرب الأهلية بين أوتو وفردريك الثاني. والتقى الاثنان في معركة حدثت عام ١٢١٤م كان النصر فيها حليف فردريك ، فأصبح إمبراطور بشرط تنفيذ الشروط الثلاثة للبابا أنوسنت ، والتي وافق عليها دون تردد.

غادر فردريك ألمانيا عام ١٢٢٠م إلى روما ليتلقى التاج ، فقد كانت نظرته إلى ألمانيا لم تكن تتعدى كونها إحدى أقاليم الإمبراطورية ، وترتبط بالقلب في جنوب إيطاليا وصقلية عن طريق وسط إيطاليا وشمالها. وقد بدا ذلك واضحاً في أنه لم يعد إلى ألمانيا منذ غادرها سنة ١٢٢٠م إلى روما وحتى وفاته إلا مرة واحدة.

ومن الملاحظ ؛ أن البابوية منذ تتويج فردريك وهي تدعوه للقيام بحملة على الشرق ، ولكنه لم يقم بشيء فهذا العم توج إمبراطوراً رومانياً ، وفي عام ١٢٢٥م رأت البابوية -ممثلة في البابا هونوريوس الثالث- أن تزوجه من وريثة مملكة بيت المقدس ، وكان فردريك مزواجاً ، وكان هذا الزواج الثاني له ، ولم يجد ضرراً من هذا الزواج ،لأن البابوية هي التي ستتكفل بتزويجه ، كما أنه سيحصل على مملكة بيت المقدس.

وعندما طلبوا منه الذهاب للعروس ، فطلب أن تأتي هي ، وتزوجها في قبرص ، ثم طلبوا منه العودة بها لعكا ، فقد كانت بيت المقدس في ذلك الوقت هي صور وعكا ، ويطلق عليها تجاوزاً اسم بيت المقدس الذي كان في قبضة المسلمين ، فذهب فردريك لألمانيا ولم يذهب لعكا ، ومكث هناك عام واحد بعد أن تعهد للبابا بالخروج بهذه الحملة سنة ١٢٢٧م ، فإذا لم يفعل استحق اللعنة والحرم الكنسي.



وأبحر فردريك بالفعل في العام الذي حدده ، ولكن المرض داهمه ، وبناءاً على نصيحة أطبائه رجع من حيث أتي. وقد جرت الأحداث التي تلت ذلك بصورة ساخرة ، كانت كافية لأن تحيل الأمر إلى مأساة درامية أو ملهاة كوميدية ، فسرعان ما تعرض الإمبراطور لقرار الحرمان الكنسي الذي أصدره ضده البابا جريجوري التاسع ، والذي رأى في عودة فردريك خداعاً متعمداً من جانبه ، غير أن الإمبراطور لم يلق بالاً لهذا القرار ولم يجعل منه عقبة تقف في طريق حملته الصليبية.

فبعد سبع سنوات من المماطلة ، والتعلل بالمرض ، وعدم الاستعداد ، وحالة البحر ، قرر فردريك الخروج بعد أن شعر بمقدرته على الرحيل ، أو بالأحرى بعد صدور قرار الحرمان ، إلا أن ذلك وضع البابوية في موقف غاية في الحرج ، ومن الصعوبة بمكان ، فلا يجوز أن

يخرج في حملة وهو يحمل لعنة الحرمان ، فكيف سيحمل الصليب! كان لا بد أن تعفو عنه البابوية ، ولكن ليس لها ضامن إذا فعلت ذلك أن يذهب إلى الشرق ، فلم تعفو عنه.

وهكذا ؛ لم يجد فردريك بداً من الخروج حاملاً الصليب بيمينه واللعنة على كتيفيه! والحق يقال أنه لا يمكن اعتبار الحملة الصليبية التي قام بها فردريك حملة عسكرية بالمعنى المفهوم ، فقد خرج في صحبة (٥٠٠) جندي وكأنه خرج للتنزه ، كما أنه حصل على مملكة بيت المقدس عن طريق المفاوضات الهادئة مع سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي.

الواقع أن ؛ الملك الكامل أعطى له الأماكن المقدسة في القدس وليس القدس نفسها ، وسمي هذا تدويل مدينة القدس ، وقد كانت فكرة الكامل أن مصر أولاً والباقي بعد ذلك ، لأن مصر هي القلب. ويتضح ذلك من وثيقة للملك الصالح أيوب إلى أبنه تورانشاه يقول له فيها: "وهذا العدو المخذول ، إن عجزت عنه ، وخرجوا من دمياط وقصدوك ، ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل أعطيهم ولا تتوقف ، على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة ، أعلم يا وليدي أن الديار المصرية هي كرسي المملكة ، وبها تستطيل على جميع الملوك. فإن كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشرق".

فردريك الثاني يقابل الملك الكامل الأيوبي

http://www.marefa.org

وعلى الرغم من ؛ النجاح الساحق الذي حققته هذه المفاوضات فإن ذلك لم يرضي البابا ، فقد خرج فردريك وهو يحمل الحرمان ، بالإضافة إلى أنه تفاوض مع الملك الكامل –الذي يعد في نظر البابا كافر- بدلاً من أن يحاربه ويقضي عليه.

وتحدد هذه الأحداث البداية الطبيعية للحرب القادمة والدائمة بين الباباوات وفردريك ، والتي شغلت ما بقى له من عمره ، حتى عاجله الموت نتيجة إصابته بالدوسنتاريا في جنوب إيطاليا عام ١٢٥٠م. وبعد وفاة فردريك بثمانية عشر عاماً تم إعدام آخر الأباطرة الرومان من أسرة الهوهنشتاوفن ، الإمبراطور كونرادينو ، الذي قطعت رأسه في مدينة نابولي بموافقة البابا كلمنت الرابع عام ١٢٦٨م.

وهكذا ؛ كُتب لقصة الصراع الطويل بين الإمبراطورية والبابوية أن تنتهي لصالح الباباوات. كما يمكن اعتبار سنة ١٢٦٨م نهاية للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفي نفس الوقت ، نهاية لحكم أسرة الهوهنشتاوفن.

وبذلك ؛ خلت الساحة للبابوية لتعربد في أوربا حتى القرن التاسع عشر ، فلم يكن هناك ملوك وأباطرة أقوياء يسيطرون على البابوية ، التي أصبحت تتحكم حتى في المسائل الشخصية ، فتجبر الملوك على طلاق زوجاتهم والزواج من أخريات ، وأصبح البابا هو السلطان الزمني والروحي ، وأصبحت صكوك الغفران تباع بالنقود في أوربا.

وهذا ما سمي بالعصور المظلمة من ١٢٦٨م وحتى عام ١٥٠٠م ، لأن الكنيسة أصبحت ذات سلطة مطلقة ، ولم يُسمح لأحد أن يقول رأي يخالف رأي الكنيسة ، ولا يعارض الكنيسة أحد وإلا سيكون الإعدام نهايته.

المراجع العربية والمترجمة

- رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولي ، القاهرة ١٩٩٨.
- رأفت عبد الحميد ،الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى ، دار قباء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠٠١.
- محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦.
- موريس بيشوب ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى / ترجمة علي السيد علي ،الطبعة الأولى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥.

المراجع الإلكترونية

- أشرف صالح محمد سيد ، الدبلوماسية الأيوبية –الصليبية (١١٩١-١١٩٢): دراسة تاريخية تحليلية.-الطبعة الالكترونية الأولى .-بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي ، ٢٠٠٧. (سلسلة المؤرخ الصغير ، ٢).
- أشرف صالح محمد سيد ، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى.- الطبعة الالكترونية الأولى .-بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي ،٢٠٠٨. (سلسلة المؤرخ الصغير ، ٤).

المراجع الإنجليزية

- Barraclough (G.),Mediaeval Germany (911-1250); essays by German Historians, Translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
- Brook (CH.), Europe in Central Middle Ages (962-1154), London 1966.
- David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor,Oxford University Press, first published, USA 1998.
- Kanntorowicz (E.), Frederick the Second, London 1931.

الموسوعات

- الموسوعة العربية الميسرة
- الموسوعة العربية العالمية
- الموسوعة الحرة ويكيبيديا (www.wikipedia.org)
- The Catholic Encyclopedia
- www.britannica.com